

أشهر شعراء العربية في شبه القارة الهندية الباكستانية غلام على آزاد البلكرامى

سيد رضوان على الندوى

العلامة غلام على بن نوح الحسينى الواسطى البلكرامى، أشهر أدباء العربية وشعرائها فى شبه القارة الهندية عبر القرون كما هو أول مؤرخ للثقافة العربية والفارسية فى الهند الإسلامية. ولد غلام على آزاد البلكرامى فى ١١١٦هـ/١٧٠٤م فى بلدة بلكرام. وهو ينتمى إلى الأشراف الزيدية الحسينية الواسطية، وقرأ الكتب الدراسية على السيد طفيل محمد البلكرامى، ثم أخذ اللغة والحديث والسير عن جده لأمه عبدالحليل البلكرامى، كما تحدث بذلك فى ترجمته الذاتية فى مؤلفاته^(١) وقضى فترة شبابه فى بلدة بلكرام. وأخذ الطريقة الصوفية من أحد مشايخها، وهو الشيخ لطف الله الحسينى.

وخرج فى سنة ١١٥٠هـ لسفر الحج ماشيا على الأقدام. ودون أن يخبر بذلك أسرته. وقد تحدث عن ذلك فى كلمات لطيفة فى ترجمته الذاتية،^(٢) وبقي آزاد البلكرامى فى الحرمين الشريفين

نحو سنتين. ودرس الحديث النبوي في المدينة المنورة على الشيخ محمد حياة السندی شارح الصحيح للبخارى، كما درس في مكة المكرمة على الشيخ عبدالوهاب الطنطاوى المصرى المتوفى سنة ١١٥٧هـ. وقد أعجب بلقبه الشعري آزاد (بمعنى الحر) وقال له أنت من عتقاء الله.

وقد عاد غلام على آزاد في أواخر سنة ١١٥٩هـ إلى الهند، ولكنه لم يذهب بعد عودته إلى بلدة بلكرام، بل توجه إلى مدينة أورنگ آباد في جنوب الهند وسكن فيها، وقامت بينه وبين الأمير نظام الدولة ناصر جنك ابن حاكم حيدر آباد نواب آصف جاه، أواصر الصداقة، والمحبة والاحترام المتبادل. وظل في تلك المدينة إلى أن وافته المنية.

ومن الجدير بالذكر أنه لم يستغل صلته بالأمير ناصر جنك لأية مآرب دنيوية على الرغم من حث بعض أصدقائه على ذلك بل عندما تولى الإمارة، أبى ذلك، قائلا: "مثل هذه الدنيا مثل نهر طالوت غرفة منها حلال والزيادة عليها حرام".^(٤)

ويدل ذلك على أنه كان ورعا زاهدا في متاع الدنيا أبى النفس ولعل سبب ذلك تربيته الصوفية الأولى في الطريقة الجشتية الشهيرة من ناحية، وانصرافه إلى حياة العلم والتصنيف والتأليف من ناحية أخرى.

وكان غلام على آزاد البلكرامى شاعرا، أديبا، مؤرخا. ومعظم مؤلفاته في تاريخ الثقافة الإسلامية في الهند، ولكنه ألف أيضا في

الحديث النبوي، فله كتاب الضوء الدراري شرح صحيح البخاري إلى آخر كتاب الزكاة. وهو كما يقول صاحب نزهة الخواطر ملخص من شرح القسطلاني لصحيح البخاري، ألفه في الحرمين الشريفين.^(٥)

وأهم مؤلفاته ما كتبه عن علماء شبه القارة وشعرائها وأدبائها وصلحائها، ومنها ماهو بالعربية والأخرى بالفارسية، وأشهر كتبه في هذا المجال "سبحة المرجان في آثار هندوستان" باللغة العربية. وهذا الكتاب في أربعة فصول، "الفصل الأول: فيما جاء في ذكر الهند في التفسير والحديث والفصل الثاني: في ذكر العلماء، والفصل الثالث: في محسنات الكلام، والفصل الرابع في المعشوقات والعشاق. وهو أول كتاب ألف في تراجم علماء الهند الإسلامية وعلومها باللغة العربية، وقد طبع في بمبائ سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م على الحجر في مجلد واحد. وقد ظهرت له طبعة محققة في سنة ١٩٧٦م بتحقيق الدكتور فضل الرحمن الندوي. ولكنه يضم الفصلين الأول والثاني فقط. ويقول محققه أنه حقق الكتاب كله، ولكن لم يتيسر الطبع إلا لنصف الكتاب. ولا شك أنه بعمله هذا قام بخدمة كبيرة لدارسى الثقافة الإسلامية في الهند، فإن الطبعة الأولى القديمة كانت قد أصبحت عسيرة المنال.

وأهم ما في هذا الكتاب تراجم العلماء والصوفية والشعراء والمؤلفين، وهي أربع وأربعون ترجمة وفي نهايتها ترجمته الذاتية في إحدى عشرة صفحة، وقد ألفه في سنة ١١٧٧هـ/١٧٦٣م أي قبل

وفاته بثلاث وعشرين سنة، وذكر فيه ما ألفه حتى ذلك الوقت من مؤلفات فى العربية والفارسية ودواوين شعرية ومنها "تسليية الفؤاد"^(٦) وهى قصائده بالعربية.

ومن مؤلفاته الأخرى فى العربية شفاء العليل فى إصلاحات كلام أبى الطيب المتنبى^(٧) وله بالإضافة إلى ذلك عدد من الدواوين الشعرية. وأما مؤلفاته الفارسية فى تراجم الشعراء والفضلاء والصوفية الصالحين، فهى ذات فوائد جملة ومعروفة فى الهند وهى: "يد بيضاء" و "سرو آزاد" و "خزانة عامرة" و "مآثر الكرام فى تاريخ بلكرام" و "روضة الأولياء" (وهو فى تراجم صلحاء أورنك آباد).

وقد قلنا أنه كان شاعرا مجيدا فى اللغتين العربية والفارسية وكان يسمى حسان الهند لقصائده الغراء فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. وله دواوين شعر عديدة فى العربية، وبعض منها مخطوطة وأخرى منها مطبوعة، وجمع سبعة منها فى مجموعة سماها "السبعة السيارة"، وطبع ثلاثة منها فى حيدرآباد الدكن على حجر، والديوان الأول منها كلها قصائد فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، بينما الديوان الثانى يشتمل على قصائد غزلية، والديوان الثالث يحتوى على قصائد فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وأخرى غزلية وبقية الدواوين تشتمل على قصائد ومقطوعات شعرية، ورباعيات ومخمسات وغير ذلك ومجموع الدواوين الشعرية عشرة دواوين. ولها عدة نسخ كاملة محفوظة فى مكتبة دار العلوم ندوة العلماء بلكهنؤ، ومجموع أبيات هذه الدواوين العشرة ١٢٥٠٠ بيت^(٨).

ومن الجدير بالذكر أنه كان يعطى لبعض هذه الدواوين أسماء خاصة بها. فالديوان الرابع اسمه "المردف": أي أنه اهتم فيه برديف، والخامس منها ديوان "المستزاد". والديوان التاسع سماه "تحفة الثقلين" وهكذا.

ويجدر بالذكر أنه كثيرا ما كان يذكر تواريخ لتأليف دواوينه، ويبدو من تتبع تواريخ هذه الدواوين أنه نظم معظمها وألفها في أواخر حياته^(٩).

وبالإضافة إلى هذه الدواوين العشرة، نظم البلكرامى مجموعة من المزدوجات على طريقة الشعر الفارسي المعروف بمثنوى، وسمى كل واحد منها الدفتر، وهي سبعة دفاتر وجمعها في مجموعة سماها "مظهر البركات" وهي عبارة عن حكايات وقصص أخلاقية وصوفية ذات مغزى ديني ونظمها على نمط "مثنوى" لمولانا جلال الدين الرومي وهو في مجموعها نحو ٣٧٠ بيت. وقد طبع في حيدرآباد قبل ١٩٠٠م^(١٠).

وله قصيدة طويلة فريدة في وصف أعضاء الحبيب، من الرأس إلى القدم، مع ذكر مواد الزينة وبعض الحلى التي تستعملها النساء. وسماها "مرآة الجمال" وهي ١٠٠ بيت. وقد طبعت مع "مظهر البركات" و في غيرها من المجموع الشعرية بأقلام غيره من الأدباء.

ويبدو من تتبع شعره أنه كان شاعرا موهوبا، وله قدرة فائقة في نظم الشعر بحيث كان ينظم قصيدة كاملة أحيانا في يوم واحد. كما كان يملك خيالا خصبا، فيبتكر المعاني في قصائده الغزلية

ومقطوعاته الشعرية. وظهر إبداعه في قصائده في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة. ويبلغ عدد أبياته عشرين ألف بيت. فإضافة إلى ماضمته دواوينه الشعرية المختلفة توجد له قصائد ومقطوعات شعرية في كتابه "سبحة المرجان" وغيره. ومن ميزاته أنه كان مغرماً باستخراج التواريخ لأحداث معينة في حياته أو تواريخ بعض مؤلفاته في جمل لطيفه أو أبيات شعرية: فاستخرج تاريخ سفره للحج بكلمة "سفر خير" (١١٥٠هـ).

وهو يكتب نثراً جيداً بليغاً مرسلًا خالياً عن التكلف والصنعة التي غلبت على عامة مؤلفي الهند بسبب سيطرة أسلوب الحريري على أقلامهم، ولعل السبب في ذلك إقامته لحوالي سنتين في الحرمين الشريفين. واحتلاطه بعرب البادية في الحجاز. وخير مثل لأسلوبه في كتابة النثر العربي كتابه "سبحة المرجان"، ويلجأ فيه أحيانا قليلا إلى كتابة النثر المسجوع المقفى، ولكنه من باب الزينة يرصع بها كلامه.

وقد قدمنا بعض نماذج شعره في آخر هذا البحث فليرجع إليها. ونكتفي هنا بذكر بعض أبياته. فمن جيد شعره قوله:

برق أضاء من الزوراء يشجيني

يارب ما باله بيكى ويكيني

أنى لسان يؤدي شكر أنعمه

بالماء والنار يرويني ويوريني

هويت حسناء أسعى فى إراحتها
وتلك فى غاية الإيذاء تؤذيني
لا يذهب الغل ماء المزن من كبدى
بل ماء ياقوتة اللمياء يروينى
تدور فى مقلتى أيام لقيتها
هل ما مضى من زمان العمر يأتينى
طيف الذى قتلتنى يوم ذى سلم
إن جاءنى فى منام الموت يحيينى
لا أبتغى أن ترانى ملاً مقلتها
لحظ قليل من العينين يكفينى^(١)

ومنه قوله:

نار الهوى فى الحسن تشعل أولاً
ورى السراج من الفراشة أسبق
أمسكت عما فى فؤادى مقولى
ولسان حالى بالسرائر أنطق
أو تدعى الورقاء جاهى فى الهوى
لأنا العشوق و ذلك المتعشق
لهب الغرام مقيد فى مهجتى
والدمع فى العين البكية مطلق
جنّ الظلام ولا مفر من الدجى
يالىت بارقة الحمى تتألق^(٢)

وتوفى غلام على آزاد البلكرامى فى أورنك آباد فى سنة
١٢٠٠ هـ وأرخ بعضهم تاريخ وفاته بكلمة "آه غلام على آزاد" (١٣).

قصيدة "مرآة الجمال" (١٤) لغلام على آزاد البلكرامى

مطلق الحسن

لي ظبية من أبرق الحنان من مثلها فى عالم الامكان
شمس تباهى بالسنا أمة لها وكواكب أخرى من الغلمان

الضفيرة

أضفيران على بياض حدودها أوفى كتاب الحسن سلسلتان
أو ليلة العيدين أقبلتا معا أو من قصائد هم معلقتان

الجبهة

الله جبته المضيئة فى الدجى وهب الإله له علو مكان
هى نصف بدر كامل لكنها تربي على القمرين فى اللمعان

الحاجب

أبصر حواجبها وأدرك كنهها غصنان منحنيان وسط البان
أو كافران يشاوران ليوقعا آمالنا فى موقع الحرمان

العين

طرفا الحبيبة ما كران تمارضا وتغافلا عن رؤية الجيران
أو نرجسان على غصين واحد وهما بماء مسكر نضران

الهدب

أهداف حسناء الأبيرق مروح متحرك لتروح الكسلان
أو حذو انسان العيون ستارة جعلت معلقة من الأجنان

اللحظ

لحظ المهابة فتورها مستحسن يحكى أريج النرجس الريان
ترنو ونحن نخاف فتنة طرفها وقع المهند فى يد السكران

الكحل

أنظر إلى كحل على أهدابها هو جوهر لمهند ويمان
أو أبداع النقاش خطا حالكا ليزيد رونق دورة الفنجان

الأنف

الأنف سد بين طرفيها نعم هذان سيافان مختصمان
محراب حاجبه بناء رائق وهو العماد لذلك البنيان

الفم

وفم الحبيبة حقة محمرة فيها لآلي الماء والتبيان
ياقوتة مثقوبة لكنها بالثقب خالية عن النقصان

الشفة

شفة الفتاة عقيقة يمنية تشفى مويتهما صدى الظمان
رطبان كل منهما ذو حمرة متفاخر باللون والحلوان

وهكذا وصف جميع أعضاء جسدها من أعلى الرأس إلى

القدمين إلى أن ختم قصيدته تلك قائلا:

سميت مرآة الجمال قصيدتي طابت برؤيتها قلوب حساني
 ما إن سمعنا مثلها عن شاعر آزاد للطراز المنشط باني
 صلى الإله على النبي وآله ما غنت الأطيّار بالألحان

قال ممتدحا له صلى الله عليه وسلم من الديوان
 الأول للسيد غلام على آزاد بلكرامى (٣٧-٣٨)

لله مائة كغصن الصندل
 أرجت بريها حواشى المحفل
 إضمية^(١٥) نشرت روائح مسكها
 فشفت^(١٦) من الخفقان قلب مؤمل
 سمراء معتدل القوام كأنها
 قصب وسكره حلى^(١٧) تدلل
 إن أبصر الطاووس زينة نومها
 يخفض لحضرتها جناح تدلل
 يا حبذا أن حمى لهب الهوى
 أن السعير لحنة لسمندل
 أين النسيم متى يجىء عناية
 حتى تعطرني بنفحة سنبل
 فقولوا له أنت الكريم المرتجى
 فاسمح بنكهة عنبر وقرنفل

أملت من قلب الحسان جوى الهوى
 وطمعت^(١٨) فى شىء عجيب مشكل
 فيه البرودة كالطباشير الذى
 تحويه أجواف القنى الذبل^(١٩)
 بل ذاك الماس ثمين صلب
 ما لان قط على الغريب الأرملة
 ياصاح فيم نحوم حول المنحنى
 والرقمتين ورامتين وحومل
 اتميل قلبك حيث شئت من الهوى
 ما الحب إلا للحبيب الأول
 الابطحي الهاشمى محمد
 خير البريات النبى المرسل
 شجر ترعرع فى حديقة هاشم
 أكرم بدوح فى العلا متأصل
 أثماره ممتازة عن غيرها
 يفشى السفرجل ما بسر الحنظل
 فرد جليل لا يشاهد مثله
 فالله رؤيته شفاء الأحول
 هدم الاله حصون من جحد الهدى
 ووفى النبى عن العدى فى العنظل^(٢٠)

جعلت له شم الرواسى عسجدا

ما عدها قطعاً لحبة خردل

جاز الثرى ثم الثريا عارجا

حتى أتانا بالطريق الأسهل

قد خلص البيت الحرام عن العدى

لقناته مفتاح باب مقفل

فاضت بأوصاف النبى يراعتى

بحر النبوة أصل هذا الجدول

آزاد عبد مادح لك راجيا

من سوحك الفيحاء حسن تقبل

صلى الإله على الرسول المحتبى

ما أرج الأرجاء عرف المندل

وعلى أقاربه الذين تطهروا

وعلى صحابته الكرام الكمل (٢١)

٢ ج - وقال متغزلاً (٢٢)

أحي بحب الغيد فى العمران	وبرؤية الغزلان فى القيعان
لا عيش إلا أن تحب خريدة	واها لعيشة صاحب السلوان
ذكى الفراش بقلبه نار الهوى	وهوى سقاه الله فى النيران
رحم الإله حمامة حنانة	هى طوقت بمحبة الأغصان

هم^(٢٣) بالحسان فان عدتنا غدا
 قلبي خليع لا يفيق عن الهوى
 لا تطلبوني في الحضارة أننى
 أو تمنعون من المدامع مقلتى
 قلبي كواه الأمس ميسم جبهها
 عشاق عزة حاضرون لعالج
 أحب ولا تفعل خلاف مزاجها
 يا أيها اللمياء أنت طبيبتى
 كسرت فؤاد المستهام يد النوى
 أهدي إلى جرح المقيم مرهما
 أنا فى جوارك للعناية راقب
 شرف مجيئك يا سعاد فشرفى
 يرجو عنايتك الكريمة أمل
 لا تطردنى عن جنابك جفوة
 أو تشتمين على رؤوس جماعة
 لا زمت سدتك السنية مدة
 شاهدت ساجعة على يدصائد
 قالت تفجر دمعها متسلسلا
 آزاد فى سرح النبى المحتبى

أيضا لقاء الحور والغلمان
 هذا طحا بى يوم ذات البان
 لأنست فى الفلوات بالغزلان
 فيض السحائب فى يد الرحمن
 لا تحسبوني شقائق النعمان
 من بينهم مثلى على الهيمان
 خير الهوى ما كان بالميزان
 هل تطفئني لواعج الظمآن
 إن تجبرى فنهاية الإحسان
 جبر الكسير رجابة الانسان
 رسم الكرام رعاية الجيران
 بيت الفقير بدولة الإتيان
 لا تحرقه بميسم الحرمان
 أنا مخلص فى السر و الإعلان
 لانفضحى المسكين فى الإخوان
 فجعلتنى فى قاعة النسيان
 نقلت إلى قفص من الأفنان
 هذا جزاء العيش فى البستان
 متمتع بالروح والريحان

هوامش

- ١- هذا هو تاريخ ولادته كما في كتابه سبحة المرجان في ترجمته الذاتية ص ٢٩٩، وكذلك في مآثر الكرام ٢٢٩ وكذلك في معظم المراجع، وفي نزهة الخواطر ١١١٠ هـ وهو خطأ ص ٢٠٤.
- ٢- سبحة المرجان ص ٢٩٩، مآثر الكرام ص ٢٢٩.
- ٣- سبحة المرجان ص ٢٩٩ - ٣٠٠.
- ٤- سبحة المرجان ص ٣٠٨.
- ٥- نزهة الخواطر ٦/٢٠٤.
- ٦- منه نسخة في مكتبة عارف بيك حكمة كما ذكره زيد أحمد في كتابه ص ٤٨٢، دون ذكر رقم المخطوط.
- ٧- كذا اسمه في مقدمة فضل الرحمن الندوى باللغة الإنكليزية على سبحة المرجان لأزاد البلكرامى ص ١٢، وزيد أحمد ص ٤٧٣، وأما اسمه عند دكتور جميل أحمد فهو شفاء العليل في المؤاخذات على ديوان المتنبى.
- ٨- انظر لمخطوطات هذه الدواوين مقدمة سبحة المرجان، الطبعة الجديدة بقلم محققه الدكتور فضل الرحمن الندوى باللغة الإنكليزية ص ١١.
- ٩- وأنظر لهذه التواريخ مقال أزاد بلكرامى فى اردو دائرة المعارف إسلامية ١/١٠٧، و الدكتور جميل أحمد، حركة التأليف ص ١٣٢، ومقدمة فضل الرحمن الأنف الذكر ص ١١.
- ١٠- حركة التأليف باللغة العربية للدكتور جميل أحمد، ص ١٣٢.
- ١١- نزهة الخواطر ٦/٢٠٧.
- ١٢- ديوانه الثانى ص ٣٧.
- ١٣- نزهة الخواطر ٦/٢٠٧، وانظر ترجمته فى سبحة المرجان ٢٩٨-٣٠٩، ومآثر الكرام ٢٢٩-٢٣١-٢٧٨-٣٨٣، أبجد العلوم ٣/٢٥٠-٢٥٢، وفيه أنه توفى سنة ١١٩٤ هـ وهو خطأ، وكذلك أخطأ فى إحصاء أبياته، تذكرة علماء الهند بالأردية ص ٦٣٢، نزهة الخواطر ٦/٢٠٤-٢٠٧،

- أردو دائرة المعارف ١/١٠٤-١١٠، حركة التأليف ١٣٠-١٤١،
الأعلام للزركلي ٣١٤/٥.
- ١٤- نقلا من "نشوة السكران من صهباء تذكّار الغزلان" لصديق حسن خان
القنوجي بهوبال، ١٢٩٤هـ، ص ٧٨-٨٥، وهي مئة وخمسة أبيات.
- ١٥- إضمية نسبة إلى إضم، وهو الوادي الذي فيه مدينة النبي صلى الله عليه وسلم
كما في القاموس....
- ١٦- في الأصل: فشفتت، وهو خطأ وينكسر به البيت.
- ١٧- حلّى على وزن فعيل بمعنى حلو.
- ١٨- في الأصل: وطمت ولا معنى له.
- ١٩- في الأصل: الذيل، ولا معنى له، الذبّل جمع ذابل بمعنى الجاف واليابس.
- ٢٠- في الأصل: العنظل بالغين المعجمة، وهو خطأ، والعنظل كجندل بيت
العنكبوت.
- ٢١- ديوان آزاد ص ٣٧-٣٨.
- ٢٢- من الديوان الثاني له، ص ٥٠-٥١.
- ٢٣- فعل أمر من هام يهيم بمعنى أحب.

المراجع

- ١- سبحة المرجان، لغلام علي آزاد البلكرامي، طبعة جديدة بتحقيق الدكتور فضل
الرحمن الندوي، جامعة علي كره، الهند، ١٩٧٦م.
- ٢- مآثر الكرام، لغلام علي آزاد البلكرامي، (بالفارسية ترجمه إلى الأردية محمد
خالد فاخرى)، كراتشي، ١٩٨٢م.
- ٣- الدواوين، الأول والثاني والثالث لغلام علي آزاد البلكرامي، حيدرآباد -
الهند.
- ٤- أبجد العلوم، لصديق حسن خان، دمشق، ١٩٧٨م.

- ٥- نشوة السكران من صهبا تذكار الغزلان، لصديق حسن خان، بهوبال - الهند، ١٢٩٤هـ.
- ٦- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للشريف عبدالحى الحسنى، ١٨ أجزاء، حيدرآباد - الدكن، الهند، ١٩٦٢-١٩٧٣م.
- ٧- تذكرة علماء الهند، لرحمن على (بالفارسية وترجمه إلى الأردية محمد أيوب قادرى)، كراتشى، ١٩٦١م.
- ٨- حركة التأليف، باللغة العربية فى الإقليم الشمالى بالهند... للدكتور جميل أحمد، دمشق.
- ٩- الأعلام، لخيرالدين الزركلى، الطبعة الثالثة - بيروت.
- ١٠- اردو دائره معارف إسلامية، فقال غلام على آزاد، جامعة بنجاب، لاهور.
